

## دلالة المكان في "رسالة التوابع و الزوابع"

لـ "ابن شهيد الأندلسي" \*

أ/عطية فاطمة الزهراء.

جامعة جيجل .

مُؤَلِّج:

المكان مقولة سردية تحظى بالإثارة، والاهتمام عند الدارسين والمنظرين، لأمر ما كان الفضاء المكان كغيره من العناصر السردية الأخرى -الشخصيات والزمن- يكون حضورا هاما في العمل السردى، بل يشكل جوهرها حكايا مائزا بأبعاده، ودلالاته، وبوصفه فضاء نصيا خالصا فيما ينتج، فهو يتضمن مبررات تخيلية في ذاته أكثر "مما يحيل على أمكنة محسوسة، أو مدركة مباشرة" (1).

بمثل هذه الأهمية التي يحتلها مكون المكان، تسترعي انتباهنا مشكلة مطروحة ما يزال الأخذ والرد فيها متواصلا، فنحن أمام أزمة تعدد المصطلح، فظهرت مصطلحات كثيرة تتزامن ومصطلح المكان كالحيز، والفضاء، والبيئة، والفراغ.

إذا أخذنا مصطلح الفضاء على محمل البحث، هذا اعتبارا من قناعتنا أنه عنصر جمالي هام من "عناصر الخطاب الأدبي رواية، أو مسرحية، أو شعرا، ولكنه مصطلح جديد دخل إلى ثقافتنا النقدية المعاصرة بقوة من خلال أعمال النقاد الفرنسيين من أمثال "بارث"، و"جنيت"، و"تودوروف"، و"كريستيفا" وسواهم، ولكن هذا المصطلح مر إلينا بوساطة الدارسين المغاربة الشبان، والمعاصرين الذين سبقونا إلى ذلك لاتصالهم المباشر بالحركة النقدية الفرنسية المعاصرة، ولكن هؤلاء لم يبلغوا مرحلة الاتفاق حول تحديد هذا المصطلح تحديدا نهائيا، بل ظل في دراستهم رجرجا متخلخلا، فمنهم من يستخدمه بمعنى "المكان Lieu"، ومنهم من يستخدمه بمعنى "الحيز"، أو ما هو قريب من ذلك، وحتجتهم في ذلك ترجرج هذا المصطلح في الثقافة الفرنسية بين هذا الناقد، أو ذاك، ناهيك عن اختصاصات النقد المعاصرة، وتشعباتها الفلسفية، والإيديولوجية، وسواهما" (2).

فالفضاء يفهم من هذا التصور على أنه موضوع شامل يحتوي "الأمكنة الواقعية، والمتخيلة بما تحتويه من مساحته، وديكور، وأثاث، يحتوي عالم الرواية المرئي واللامرئي، وهو ذو

صلة بعناصر السرد الأخرى والأحداث، والعصر، واللغة"<sup>(3)</sup>. ونحن بهذا استنتجنا أن الفضاء مصطلح شامل لكل الآليات السردية، فيجوز لنا أن نقول فضاء الزمن، فضاء الشخصيات، فضاء المكان ...

وكل ما تم استخلاصه من محاولة لضبط مصطلح الفضاء هو اعتبار "أوسع وأشمل من المكان، إنه مجموع الأمكنة التي تقوم عليها الحركة الروائية"<sup>(4)</sup>، إنه "ليس معادلاً للمكان"<sup>(5)</sup>. أما إذا أردنا أن نضع أيدينا على تعريف للمكان، ولمس جمالياته لوجدناه قد شكل بؤرة اهتمام لدى الإنسان منذ القدم، والمتصفح للشعر الجاهلي سيلمح لا محالة لوحة جمالية تعد خير معبر للمكان؛ فالمقدمة الطللية ذات "الرمز الخالد، والمفصل الحيوي في بنية القصيدة الجاهلية، إنما هي تجسيد حي للمكان؛ ومن ثم لدلالاته النفسية التي عانى منها الشاعر من هجر، وبعد من قبل الحبيبة، أو القبيلة، وقد أدى التحول المكاني للشاعر إلى جعل الطلل شاهداً شاخصاً، وموقفاً حاضراً للمكان في القصائد الكثيرة التي ورد فيها ذكر الطلل، واستدكار الديار، والبكاء عليها"<sup>(6)</sup>.

والأمر نفسه، إذا ما حاولنا ملامسة وجوده في المفكرة النقدية الحديثة، والمعاصرة التي تعتبره نقطة مهمة داخلية في نطاق السرد بمختلف ألوانه، وفنونه، فقد وضع للإشارة إلى "موضع جسم ما، وتحديدده"<sup>(7)</sup>، وهو الفهم نفسه الذي توقفت عنده الباحثة "سيزا قاسم" عندما اعتبرته "محدد يتركز فيه مكان وقوع الحدث"<sup>(8)</sup> إلى جانب هذا، اقترحت طريقة معينة لدراسة المكان، إذ إن السبيل لدراسته تتم عن طريق "تشكيل عالم من المحسوسات قد تطابق عالم الواقع، وقد تخالفه في صور ولوحات تستمد بعض أصولها من فن الرسم، والتصوير"<sup>(9)</sup>.

وهكذا يغدو المكان بُعْداً من الأبعاد الفنية، والجمالية في العمل السردى.

إضافة إلى المصطلحين السالفي الذكر، نود الإشارة إلى مصطلح ازداد اقترانه يوماً بعد يوم بهذين المصطلحين؛ "الحيز" في محاولة ضبطه، والوقوف على ملامحه المميزة له.

يُشكل "الحيز" أحد العناصر الأساسية في السرد، فهو على حد قول الباحث "عبد الملك مرتاض" عبارة عن "فضاء خرافي، أو أسطوري، أو كل ما يند عن المكان المحسوس: كالخطوط، والأبعاد، والأحجام، والأثقال، والأشياء المجسمة مثل الأشجار، والأنهار، وما يَعتَوُرُ هذه المظاهر الحيزية من حركة، أو تغير"<sup>(10)</sup>. ويذهب إلى أكثر من ذلك، إذ نراه الباحث الأكثر

استخداما لهذا المصطلح، بحيث يستعمله في كل كتبه المتعلقة بالسرد، ويقر بأن مصطلحه هذا هو الأنسب، والأصح، باعتبار أن الفضاء والمكان مصطلحين قاصرين بالقياس إلى الحيز، فيرى الأول قاصرا لأن معناه بالضرورة "جاريا في الخواء، والفراغ"<sup>(11)</sup>، أما الثاني محدود إذا كانت له "حدود تحده، ونهاية ينتهي إليها، فإن الحيز لا حدود له، ولا انتهاء"<sup>(12)</sup>.

ووفق هذا الطرح، فإننا نجد "عبد الملك مرتاض" ملحا على بسط ونشر هذا المصطلح في الساحة السردية، لأنه المصطلح - حسب - الأصلح، والأقوم لدراسة أي نص سردي، على خلاف المكونين الآخرين، على اعتبار أن "المكان يعني الجغرافيا، وأن الفضاء يعني الأجزاء العليا التي لا سيادة لأي بلد فيها، والفضاء يعني الفراغ بالضرورة (...)"، بينما الحيز قادر على أن يشمل كل ذلك بحيث يكون اتجاهها، وتُعدا، ومجالا، وفضاء، وجوا، وفراغا، وامتلأ في أي شكل من أشكاله الهندسية الكثيرة"<sup>(13)</sup>.

فكل ما تم استخلاصه من محاولة ضبط المصطلحات هو خروجنا باستخدام مصطلح مركب نراه أجدى، وأنفع لهذه الدراسة، وهو "الفضاء المكاني" الذي به ندرس المكان، باعتباره جزءا من الفضاء. إضافة إلى هذا المصطلح المركب نلجأ إلى استخدام مصطلح المكان بمعزل عن الفضاء أثناء الدراسة، لتبيين مقصدنا الذي نرمي إليه؛ وهو دراسة الأماكن التي وقعت فيها الأحداث مع الصبغة الخيالية التي أضفيت عليها على اعتبار أن هذه الأماكن موجودة بالفعل في عالمنا الواقعي "الحقيقي"، لكن "ابن شهيد" جعلها تحمل هذا البعد الخيالي الصرف أثناء رحلته السماوية إلى أرض التوابع والتوابع (أرض الجن) متنقلا من خلالها بين التوابع طالبا الإجازة منها.

### تجليات المكان في الرسالة :

نشير منذ البدء إلى أن "ابن شهيد" قد جعل أحداث رحلته في السماء حيث "أقام من شخصه بطلا للقصة يتعهد حوادثها بنفسه، مُستصحباً تابعه "زهير بن نمير" دون أن يليه عملا يستحق الذكر، غير التعريف بالأشخاص، والأماكن"<sup>(14)</sup>. ومثلما وفق في "رسم صورة التوابع الذين التقى بهم في أرض الجن، كان موقفا أيضا في تصوير أماكن التوابع"<sup>(15)</sup>، فتعددت التوابع، وتعددت الأماكن، والفضاءات السردية، ولهذا سنذكر بيئة كل تابع مع إبراز خصوصية المكان فيها.

وليس استباقاً للحديث عن كل تابع، والمكان الذي حل به، إنما بدءاً نؤكد أن رغبة "ابن شهيد" في الانتقال إلى عالم الجن تحققت بفضل تابعه الذي طار عنه ثم "انصرف كليمح بالبصر"<sup>(16)</sup> فإذا به "يجتاب الجو فالجو، ويقطع الدوّ فالدوّ، حتى التمحت أرضاً لا كأرضنا، وشارفت جواً لا كجونا، متفرع الشجر، عطر الزهر"<sup>(17)</sup> ليعلمنا أنها تلك أرض الجن التي تمنى "ابن شهيد" رؤيتها، وتحققت رؤيته عندما حل بها.

وحتى تتضح الرؤية أكثر حول المكان، وتواجهه في الرسالة التي أسهم في تطوير أحداثها، يتوجب علينا أن ننظر أهم الأمكنة المسيطرة فيها، مع محاولة فك دلالات كل مكان في فضاء الرسالة، وهذا باقتراحنا هذا الجدول الذي يختصر هذه الأماكن.

| القسم         | المكان                   | النموذج من الرسالة                                                                                                                                                                                                |
|---------------|--------------------------|-------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|
| المدخل        | البستان                  | فجزعت، وأخذت في رثائه يوماً في الحائر.                                                                                                                                                                            |
| توابع الشعراء | السماء<br>الأرض والبستان | - وسار بنا كالطائر، يجتاب الجوّ فالجوّ، ويقطع الدوّ فالدوّ.<br>- حتى التمحت أرضاً لا كأرضنا، وشارفت جواً لا كجونا، متفرع الشجر، عطر الزهر، فقال لي: حللت أرض الجن "أبا عامر".                                     |
|               | البستان                  | - إلى واد من الأودية ذي دوح تنكسر أشجاره، وتترنم أطيّاره.<br>- غيضة شجرها شجران: سأمٌ يفوح بهاراً،<br>وشحر يعبق هندي هنادي وغازا. فرأينا عينا مَعِينَةً تسيل، ويدور ماؤها فلكيا، ولا يحول.                        |
|               | البستان<br>الأرض (القصر) | - إلى شجرة غيناء يتفجر من أصلها عين كمقلة حوراء.<br>- وجزنا في ركضنا بقصر عظيم قدامه ناورد، يتطارد فيه الفرسان.<br>- وسرنا حتى انتهينا إلى أصل جبل دير حنة، فصحت: من منازل "أبي نواس"، ورب الكعبة العلياء ! وسرنا |
|               | الأرض<br>(دير حنة)       |                                                                                                                                                                                                                   |
|               |                          | نجتاب أديارا، وكنايس وحانات، حتى انتهينا إلى دير عظيم تعبق روائحه، وتصوك نوافحه، ونزلنا وجاءوا بنا إلى بيت قد اصطفت دنانه، وعكفت غزلانه .                                                                         |

|              |                          |                                                                                                                                                                      |
|--------------|--------------------------|----------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|
| توابع الكتاب | الأرض<br>(مرج دهمان)     | - فقال لي زهير: جمعت لك خطباء الجن بمرج دهمان.                                                                                                                       |
| نقاد الجن    | الأرض<br>(مجلس الحضرة)   | - وحضرت أنا أيضا و"زهير" مجلسا من مجالس الجن؟ وكان بالحضرة فتي حسن البزة.                                                                                            |
| حيوان الجن   | البستان<br>الماء والسماء | - قرارة غناء ***** ، تفتت عن بركة ماء.<br>- ثم ترفعت، وقد اعترتها خفة شديدة في مائها، فمرّة ساجحة، ومرة طائرة، تنغمس هنا وتخرج هناك، قد تقبّ جناحها، وانتصبت ذنابها. |

### جدول ( 01 ) يوضح أهم الأماكن في الرسالة.

نستخلص أن الفضاءات المكانية المسيطرة هي: فضاء السماء، فضاء الأرض، فضاء البستان، فضاء الماء، سنتناولها بالتدرّج مع إعطاء كل فضاء الدلالات التي يحملها.

فإذا ما خصصنا القول لنشرع للفضاء الأول - السماء - بآية نظر له من خلالها، فنحصرها في دلالات عدة، بداية من الدلالة الأم التي سعى "ابن شهيد" على أن يبرزها، وهي سعيه الرحيل إلى السماء حيث يحقق رغبته الذاتية التي لم تجد لها "مكانا في الواقع، فسكنت الخيال. وإذا ما كان دور الخيال يتمثل في تشييد واقع فوق الواقع، فإن الرسالة قد مكّنت صاحبها - إزاء الظروف المحيطة به - من الخروج عن عالمه الحقيقي، والإقامة في عالم آخر من صنع خياله، عالم تتمني فيه التناقضات، والعراقل، وتكتسب فيه الرغبات الدفينة حق التحليق بحرية مطلقة دونما قيد أو موانع"<sup>(18)</sup> مستأنسا بالتوابع، ومحاورا لها، ويزداد تأكيدنا على أهمية هذا الفضاء عندما استعمل الفعل "طار" في استهلال رحلته إلى تلك الأرض، فغير ناء عنا دلالة هذا الفعل الذي يحمل خصوصية الطيران، والتحليق الذي لا يكون إلا في السماء.

وإذا ما بدأنا تفتيت هذه الدلالة الأم لتوقفنا عند دلالات أخرى يرمي الراوي من خلالها بث ملكات كامنة في نفسه، لعله حبا في الرفعة، والعلواء، والتسامي إذ هو "الشهيد الأشجعي" الذي يحمل بذور الاعتزاز، والعجب بملكته الأدبية أولا، وينسبه أينما حلّ، وحضر ثانيا.

وقد يكون استعمال السماء من باب التدليل على التأمل، والتفكير في ملكوت الخلاق عز وجل، والإنسان العاقل هو الذي يخلق في السموات الربانية متأملا، ومختارا في إبداعات بثتها

أنوار ربانية مركزاً، وباحثاً عن أسرار الخلود والجمال فيها. و"ابن شهيد" يعتبر نفسه إنساناً كاملاً، وعاقلاً واعياً لا تأخذه ملذات، ولا ملاهي الحياة، فهو يعرف ربه، ويتأمل كونه ليزداد إيماناً، وثقة في الله، وفي نفسه، ولعل هذا التأمل، والإيمان ازداد أثره في أيامه الأخيرة، فقد روي أنه كان شديد الخوف من الموت "فأخذ يدعوا الله عز وجل، ويشهد شهادة التوحيد، ويرغب إلى الله أن يرفق به، حتى أسلم الروح"<sup>(19)</sup>. ونظراً لارتباط هذا الفضاء بالتأمل، فإن "ابن شهيد" قد أراد أن "يثبت ميله إلى مثل هذا التفكير من خلال استعمال إطار السماء، وجعله المكان الذي يستحق أن تجري فيه أحداث رحلته"<sup>(20)</sup>.

وهذه الدلالات المتنوعة لهذا الفضاء العلوي "السماء"، وإن دلت على شيء فإنها تدل على نزعة داخلية تسكن "ابن شهيد"؛ وهي حبّ التفرد، والتفوق على ما أنجبت العربية من شعراء، ونائرين قبله وبعده، فهداه تفكيره إلى نسج "التواضع والتواضع" التي بنى فيها انتصارات وهمة تشبع غروره، وكبرياءه.

ولم يقف "ابن شهيد" عند دلالة هذا الفضاء الواسع، بل وظف فضاء آخر جديراً بالإفضاء حوله سماه؛ الأرض، لعلنا ذاكرين هذا في بداية الرسالة عندما جابا الجو، وقطعا الدوّ معاً، ليلمحها أرضاً ليست كأرضنا، ويشارفاً جوّاً لا كجونا؛ إنها ببساطة أرض الجن. ومظاهر هذا الفضاء الثاني "الأرض" واردة في أكثر من موضع، مع علمنا أنه جعل مسرح أحداثها في السماء العليا، لكنه غير مرة يوظف هذه المظاهر من جبال، ومروج، ووديان، ...

فقد جعل صاحب "أبي نواس" يعيش في قمة الجبل عندما قال: "وسرنا حتى انتهينا إلى أصل جبل"<sup>(21)</sup>. ثم ينتقل في مقاطع من الرسالة إلى أرض تواضع الخطباء الذين اجتمع بهم في مرج دهمان، ليدل هذا المرج على قطعة أرضية دار فيها الحوار، وثبت اللقاء، فهو بهذا يعاود الاتصال بالأرض الواقع، مع درابته الكاملة أن رحلته كانت في السماء الخيالية.

ومن ثمّة ستتوقف عند دلالة كلمة الجبل على ما بها من إحياءات الشموخ، والارتفاع، وصعوبة اعتلائه، لتجدها معبرة عن فكرة لا يمل "ابن شهيد" من تكرارها في مناطق كثيرة من الرسالة؛ وهي علو شأنه، وارتفاع أمره لعلمه، وأدبه، وكذا نسبه الذي لا يفتأ ذاكره في كل موضع. وبالنظر إلى مفردة الجبل نجد أنها "ارتبطت في موروثنا الديني بـ"ابن نوح" وكان من العاصين المتمردين على الحقيقة التي جاء بها أبوه، كما ارتبطت بـ"موسى" النبي الذي كان يذهب

إلى جبل طور لمناجاة ربه<sup>(22)</sup>، لكنما بورود مفردة الجبل في الرسالة ترتبط الدلالة أكثر بـ "موسى" وتبعد عن "ابن نوح"، لتدل على ابتعاده عن مظاهر الحياة الأندلسية العابثة، واللاهثة وراء زخارف الدنيا، وملاهيها من جهة، والرغبة في الهدوء، والراحة، والسكينة التي يمتلكها الجبل لحظة لجوءنا إليه.

ومن ثمة تنفتح دلالة الجبل باعتباره "وسيلة وملاذ للانفتاح على الميتافيزيقي، والسحري، وهو المكان الأثير للتهيؤ للفعل النبوي، أو الحدسي (...). بانفتاح الشاعر على سحرية الوجود، ومن ثم أيضا تتداخل الحواس، وتتراسل، وتأخذ الأشياء صفات جديدة"<sup>(23)</sup>

كما نجد أن الجبل من الفعل "جَبَلَ"\*\*\*\*\*؛ بمعنى طبعه وسليقته، وبهذا يكون "ابن شهيد" قد وظف فضاء الجبل للدلالة على "شيء جبل عليه، وأبى أن يتركه، وقد يبتعد عنه، وقد يكون هذا الشيء العز، والرفاهية التي تعود عليها في ظل الدولة العامرية، أو قد تكون مكانته الأدبية التي حظي بها في عصره، وأراد "أبو بكر" أن يسلبه إياها رغم تعوده عليها، أو قد يكون هذا الشيء المرأة التي أحبها في صباه، وتعود عليها، ثم اصطدم بموتها، وفراقها له، فلم يتمثل هذا الأمر نتيجة ارتباطه الوثيق بها"<sup>(24)</sup>.

وإذا انتقلنا إلى المقطع الذي يوظف فيه النص "المرج"؛ هذه الأرضية الواسعة المحتوية على ألوان من الثمار، والحيوان ليث فكرة فحواها أن جمال الطبيعة الأندلسية ليس له جمال يناظره في كل ربوع الأرض. وربما حملت هذه الكلمة دلالة سعة صدر، وانسراح قريحة "ابن شهيد" كحال هذه المروج الواسعة التي تحوي السعة، والانسراح؛ فصدره كثيرا ما احتل عداوة، وتنكر الوشاة الذين أفسدوا عليه عند الحكام، فما كان إلا أن قابلهم بنفس طيبة صابرة، تأبى الخضوع لرغباتهم، وتشى بكثير من الرفعة، وكرم الخلق.

وإذا استقصينا دلالات الفضاء الأم "الأرض" من خلال توظيف "ابن شهيد" لها، فلا محالة تبدو للوهلة الأولى دالة على أن الأرض أم البشر، لأنها أصله، منها خلق، ومنه قول عز وجل: (وَاللَّهُ أَنْبَتُكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا)<sup>(25)</sup> لهذا حنّ "ابن شهيد" لأصله الأول -الأرض- فاستعان به ليتذكر، ويتعظ أنه منها، وعائد إليها.

وإذا ما تأملنا صور توظيف الأرض لوجدنا أن "ابن شهيد" يريد في كل ذكر لها أن يومئ أن الأرض هي منشأنا، ومعقلنا، وهي أمانا التي منها حقيقتنا الأزلية، لأصلنا الذي لا يغيره

أي تطور علمي مهما تقدمت البحوث، والاكتشافات في أننا خلقنا من طين، إذ يقول جلّ وعلا: (إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ).<sup>(26)</sup>

هذا باختصار عن دلالة الأرض داخل هذا النص السردى، لنختزل كلمة أخيرة في أن الأرض سيدة المكان تأتي "لِتَحْتَوِيَ الموجودات العينية على ظهريها، وتحيط بها (...) الأرض المستقر، والموطن، فهي حاملة الوجود، وأصل كل جمال، ونهاية كل حي، كما أنها الأم الحنون، والكنز المدفون"<sup>(27)</sup> فكانت كل الرموز، والمعاني حملتها الرسالة، وأراد "ابن شهيد" بثها لاقتناعه بها.

وبانتقالنا إلى الفضاء الثالث تتمثل دلالاته، لتوقفنا طويلا. لعله الفضاء الأكثر بروزا، وحضورا في ثنايا الرسالة، لهذا سنتوقف عنده لنبين نوايا "ابن شهيد" من وراء توظيفه غير مرة في الرسالة.

في البدء، نذكر أنه الفضاء الذي يحمل جماليات تجعل روحك، وحواسك تسمو إلى آفاق عليا من الشعور، والراحة؛ إنه فضاء الحائر "البستان"، إذ تم توظيفه عندما عرف أرض الجن، وقبلها عندما تذكر محبوبته التي راح يرثيها فيه، حين لم يجد متنفسا ولا مرتعا يدفن فيه همومه، وآلامه...

ولعلك تلحظ أن "ابن شهيد" كلما انتقل من تابع إلى آخر عزم على أن يلتقي به في بيئة خضراء، وسط رياض يصير على وصف مظاهرها، وإدراك ما تحويه من أبعاد جمالية تصور حسن إبداع الله عز وجل. فإذا انصرف إلى البيئة الجاهلية تراه يرسم صورة جميلة لهذه البيئة من خلال "تجواله على توابع أصحابه، فتكاد تنطق بكل ما فيها، من أودية، وأشجار محيطة بها، وأزهار يفوح منها السام، والتهّار، وتخللها الأنهار الجارية، وتغرد في الطيور بأصواتها العذبة"<sup>(28)</sup>.

وبانتقاله إلى البيئة العباسية متتبعا أثر توابع الشعراء العباسيين هناك، تلمسنا أنها بيئة لا تقل أهمية عن البيئة الجاهلية، بحيث تجده يجيد كل الإحادة في تصويرها؛ فهي بيئة مليئة بمظاهر اللهو، والمجون، كثرت فيها القصور، والمباني التي تشي عن رونق البناء، وجماله الهندسي. فيجعلك تعيش مع هذه الأمكنة في خيالاته حيث يدركها، ويصبرها، بل إنه "يضيف على المكان طابعا إنسانيا، فتمتزج الطبيعة بالإنسان، ويندجان في بعضهما البعض، وكأن الحدود تُمحي بينهما،

فيكون الإنسان منظورا إليه من خلال الطبيعة، وتكون الطبيعة منظورا إليها من خلال الإنسان<sup>(29)</sup>.

إضافة إلى هذا فقد انتبه "ابن شهيد" للعلاقة بين الأمكنة، والشخصيات، فقد حاول أن يثبت لنا أنه من خلال الشخصية يمكن أن نعرف مكان تواجدها، ومن خلال المكان يمكن أن نعرف الشخصية، فقد أعطانا بيئة حقيقية صورت وضع "أبي نواس" -مثلا- أحسن تمثيل فهو عاشق الخمر، واللهو، وكان لا بد أن يعبر مكان تواجده عن هذا، فكان يعيش في "دير عظيم تعبق روائحه، وتصوك نوافحه"<sup>(30)</sup>، فهو في "بيت قد اصطفت دنانه، وعكفت غزلانه"<sup>(31)</sup> وكثرت فيه زقاق الخمر، والآلات الموسيقية وغيرها. فتشكل الفضاء المكاني الذي ستجري فيه الأحداث "يتطلب من الروائي أن يكون بناؤه منسجما مع مزاج، وطبائع شخصياته، ومن ثم ينشأ نوع من التأثير المتبادل ما بين الشخصية، والمكان"<sup>(32)</sup>.

فهذا الفضاء السردي يعبر عن رغبة من "ابن شهيد" في التنفيس عن مكونات نفسه، ومكبوتات أعماقه، ونحن ندري أن البستان ينقل النفس البشرية إلى "مشهد حي من مشاهد الطبيعة الحية حيث خضرة الأشجار تزرع في النفس السلامة، والطمأنينة، وتبعث فيها زهو الحياة وشبابها (...). كما أن حالة الصفاء تستشف من المشهد، وتتحرك حاسة الشم بانتشار رائحة الأزهار التي تفتح النفس، وتجعلها تنجذب، لتأمل ذلك الجمال عبر حاسة البصر التي تسهم في تكوين صورة فنية ذات أبعاد حسية، ونفسية"<sup>(33)</sup>، وما هذه الدلالات التي يحملها فضاء البستان إلا لنجعلها نرافق "ابن شهيد" في إحساسه بأن يهرب، ليرتاح من مجتمعه، وتناقضاته من جهة، وليشكي حقد معاصريه، وحسداهم، بل إسرافهم في الكيد له، والغض من شأنه من جهة أخرى.

كما يحمل هذا الإطار السردى دلالة أخرى، لعلها رغبته في تصوير الحياة، والبيئة الأندلسية التي أسرت ساكنيها، والسامعين عنها على حد سواء، فالبستان جزء صغير من حلقة أكبر هي الطبيعة الأندلسية التي أصبحت "الحلم البهيج الذي يملأ قلوب الشعراء في سكرات الخيال، وهي الأغنية المحبة التي يترغمون بها في أمسياتهم الجميلة الحاملة، ولياليهم العذبة الفاتنة"<sup>(34)</sup>، فراحوا ينسجون أجمل القصائد واصفين مظاهر هذه الطبيعة، فقد وصفوا "الرياض وأنوارها، والحدائق وأزهارها، بل انطقوا الأزهار فتفاضلت، وأجري الثناء على لسنها فمدحت (...). والشمس، والقمر، والهلal، والبدر، كما تحدثوا عن السحاب، والبرق، والرعد، والعاصفة،

ثم أشاروا إلى الليل والنهار، ووصفوا تلك الأشياء وصفا حسيا رائعا<sup>(35)</sup>. لهذا فقد لازم هذا الفضاء السردى كامل المقاطع السردية، والمتصفح لـ"لتّوابع والتّوابع" لا شك لامح هذا في ثناياها. وإذا أضفنا إلى هذا الفضاء المكاني فضاء آخر، يحمل في طياته دلالات كثيرة؛ إنه فضاء القصر الذي ربط بتابع "البحثري"، ولكنه يُمنح ملكية تامة لـ"طوق بن مالك" دون أن يعرفنا به. أضف إلى هذا أنه لا يمنحنا وصفا داخليا للقصر، على الرغم من اعتياده حياة القصور، خاصة زمن العامريين، بل إنه يكتفي بوصفه خارجيا من خلال ذكر ميدان القتال الذي يتقاتل فيه الفرسان أمام هذا القصر.

ربما نجد لهذا تفسيراً من خلال رجوعنا للفترة التي عاشها "ابن شهيد". ففي القسم الأول منها -أي زمن الرخاء والاستقرار- شهد عزا، وترفا في عهد العامريين، فشاهد زهو حضارة الأندلس في شتى مظاهرها، فإذا همّنا فضاء العمران لوجدنا قصورا، ومجالسا فاخرة، وإذا تتبعنا أكثر لرأيت "مدن تتزين بقصور فارحة - كالحمرأء مثلا- تحيط بها البساتين والحدائق، تحليلها النافورات والتماثيل، تملؤها الأرائك، تجري من حولها الأنهار"<sup>(36)</sup>، واستحضر "ابن شهيد" لفضاء القصر راجع لتعلقه الشديد بهذه القصور التي "أسرفوا في تشييدها على غرار قصور الأمويين، والعباسيين في المشرق، واتخذوها منتجعات للاستحمام، والراحة، وللإستغراق في حياة اللهو والترف، والنعيم، بعيدا عن مقر الحكم بالحاضرة"<sup>(37)</sup>.

ويبدو جليا أن هذه القصور فضاء يعبق بهندسة فنية، وزخرفة هندسية ضاربة في عمق البناء الأندلسي الذي طالما وشى ببقايا الحب والحلم، كلما وطئت رجلاك ذلك الفردوس المفقود و"ابن شهيد" واحد من أبناء هذه الأرض التي رسمت تضاريسها في جسده، فأصبح يحيا بها، ويتنفسها وصفا واستدعاء فاض عقبه في ثنايا رسالته. ولو عدنا للقسم الثاني من الفترة التي عاشها "ابن شهيد"، كان عهد الفتنة فيها قد بدأ، فشاهد سقوط الدويلات الأندلسية بكل مظاهرها، وكأن شيئا لم يكن.

وإذا حملنا الفترة الأولى محل النظر لوجدناه مثبتا لنا جمال البناء والعمران - وبخاصة القصور- في الدولة الأندلسية، حيث بلغت المباني، والمساكن مرحلة من الإبداع الفني الذي صنعتته أنامل أندلسية، فترى عينك، وتشاهد سحر الهندسة، وروعة الزخرفة التي مازالت بعض معالمها شاهدة إلى اليوم. ونحن إذا أخذنا الفترة الثانية على محمل الجد، والبحث لاكتشافنا الحزن

الذي تملك "ابن شهيد" من سياسة النهب، والسلب التي تعرضت لها البلاد الأندلسية على يد العابثين غير واعين لسحر هذه البلاد، فما وجد خير ممثل لهم غير أولئك الفرسان المتصارعين أمام باب القصر الذي يمثل الأرض الأندلسية، المرتبطة بإشراقه الماضي، وبهاء الأطلال التي تأسرك، وأنت تستعيد تاريخ المدينة التي تكالب عليها هؤلاء الفرسان الممثلين في الأقوام الدخيلة على الأندلس عابثين بترائها، وكل صروحها الضخمة.

يضاف إلى هذه الفضاءات، فضاء لا يقل أهمية، بل إن توقفنا عنده لزاماً، فهو سر وجودنا وحياتنا، ولا نجد خير كلام ممثل له غير قوله عز شأنه: (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ)<sup>(38)</sup>؛ إنّه الماء. فقد ظهر استعمال "ابن شهيد" له عبر العديد من المقطوعات السردية للرسالة.

إذا ما أردنا تمثل نماذجه في الرسالة، لصادفنا حضوره في أول رحلة قام بها "ابن شهيد" مع تابعه "زهير بن نمير" إلى صاحب "امريء القيس" الذي وجده في "واد من الأودية ذي دوح تتكسر أشجاره، وتترتم أطياره"<sup>(39)</sup>.

وإذا ما سرنا مرة أخرى، لتلمسنا حضوره في ضيافة تابع "أبي تمام" الذي فضل أن يسكن في قعر العين، ويقول النص في هذا: "فانفلق ماء العين على وجه فتى كفلقة القمر، ثم اشتق الهواء صاعدا إلينا من قعرها حتى استوى معنا"<sup>(40)</sup>.

وفي استعمال آخر لهذا الفضاء، ذهب "ابن شهيد" في ولعه بالماء أن أسكن حيوان الجن بأكمله في هذا الفضاء، فكان مستقرهم بركة ماء، وجعلها مكان تواجههم، ونقاشهم في مختلف المسائل الأدبية، واللغوية.

وفي هذا الفصل الخاص بحيوان الجن، نتوقف عند صورة "الإوزة الأدبية" التي تسبح في بركة ماء؛ فهي مرة ساجدة هائمة بنفسها، ومرة طائرة مخلقة مبتعدة عن الناس.

فمن خلال هذه المقاطع النصية التي وظف فيها "ابن شهيد" هذا الفضاء، نسير باحثين عن دلالات تكتنف هذا الفضاء، وما مغزى استعماله في ثنايا الرسالة.

لعل الدلالة الأولى التي يحملها هذا الفضاء، نتمثلها في قوله تعالى: (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّا خُلِقَ، خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ، يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ، وَالتَّرَائِبِ)<sup>(41)</sup>، فهو يرمز لبداية خلق الإنسان. كما قد يحمل هذا الفضاء دلالة الطبيعة الأندلسية التي تحمل الأنهار الغزار، والعيون

العذاب، وكل مظاهرها الحية، فهو فضاء يستدعي مرة أخرى الأرض الأندلسية الساحرة التي لا يكف "ابن شهيد" عن ندائها، واستحضارها، سواء أتعلق الأمر في نثره، أم في شعره. وكل هذه الدلالات التي يحملها فضاء الماء، توحى برغبة "ابن شهيد" برجوع الأندلس؛ بكل مظاهرها، وجمالها، وطلبه المستمر في العودة إلى هذه الأرض التي كانت في غد سابق آية من آيات الجمال الربانية التي بثها الله عز وجل في الأرض. فقد ظل أدباؤها يتباهون بجمالها الأبدي، ويبدون مشاعر الحب، والصدق لهذه اللجنة الخالدة التي ستبقى فضاء يعبق بشذا المحبة والسلام فلنستحضر "الأندلس" لا للتباكي على أطلالها، ولا للوقوف أمام تاريخها لاستدرا عطفه، واستعادة بهائه، ولكن لنكتب بها تاريخا جديدا. فلنتطلع جميعا لجعل هذا العالم فردوسا للبشر كافة.

وحاصل النظر يظهر بجلاء أن خصوصية المكان في هذا النص السردى ازداد حضورا، وتوظيفا من خلال تعبيره عن الأماكن الطبيعية الحاضرة بيننا، لكن "ابن شهيد" أعطاها بعدا آخر من التخيل، ليرسم لها أحسن الصور، لأنها في نظره تعبر عن صورة، ومكان واحد ما يزال يذكره، وهو الفردوس المفقود.

### خاتمة

وبهذا نخلص إلى أن المكان يعتبر من أبرز الضروريات في الخطاب السردى، فهو مكون جوهري، لا يقل أهمية عن الزمن، والشخص، وله دوره المهم في الحفاظ على تماسك، وانسجام أحداث النص السردى.

### الهوامش:

1- جنيت، وآخرون: الفضاء الروائي، (ترجمة: عبد الرحيم حزل)، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء: المغرب، بيروت: لبنان، [د.ت]، [د.ط.] ص 006

2- خليل الموسى: "ملاحم من الرواية العربية في سورية"، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 2006م. [د.ع]: -sd / indbook 06 / h- m/ study 06/ 39- book/ 06/ dam.org-  
(http://www.awu 001.htm)

3- المرجع نفسه، الموقع نفسه.

- 4- حميد لحمداني: بنية النص السردى "من منظور النقد الأدبي"، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء: المغرب، بيروت: لبنان، 2000م، ط1. ص 64.
  - 5- حسن نجحي: شعرية الفضاء السردى، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2000م، ط1. ص 51.
  - 6- محمد عويد محمد ساير الطربولي: المكان في الشعر الأندلسي من عصر المرابطين حتى نهاية الحكم العربي (484هـ - 897هـ)، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، 1425هـ - 2005م، ط1. ص 19.
  - 7- (مكان (فيزياء) من ويكيبيديا، الموسوعة الحرة) <http://ar.wikipedia.org/wiki>
  - 8- سيزا قاسم: بناء الرواية "دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ"، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، 1984م، [د.ط.]. ص 76.
  - 9- المرجع نفسه، ص 77.
  - 10- عبد الملك مرتاض: تحليل الخطاب السردى "معالجة تفكيكية سيميائية مركبة لرواية زقاق المدق"، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995م، [د.ط.]. ص 245.
  - 11- عبد الملك مرتاض: في نظرية الرواية "بحث في تقنيات السرد"، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، (سلسلة عالم المعرفة)، الكويت، 1998م، [د.ط.]. ص 141.
  - 12- المرجع نفسه، ص 146.
  - 13- عبد الملك مرتاض: دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة أين ليلاي لمحمد العيد آل خليفة، ديوان المطبوعات الجامعية، ابن عكنون، الجزائر، 1991م، ط1. ص 103.
  - 14- ابن شهيد الأندلسي: رسالة التّوابع والتّوابع، (تحقيق: بطرس البستاني)، دار صادر، بيروت، لبنان، 1387هـ - 1967م، ط1. ص 75.
  - 15- محمد سعيد محمد: دراسات في الأدب الأندلسي، دار الكتب العلمية، بنغازي، ليبيا، 2001م، ط1. ص 274.
  - 16- ابن شهيد الأندلسي: المصدر نفسه، ص 91.
  - 17- المصدر نفسه، ص 91.
- \* الغيضة: الغابة ذات الشجر الكثير. أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري: لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، 1997م، ط1. ج 5، ص 78. (مادة غَيْضَ).

- \*\* السام: الخيزران. ابن شهيد الأندلسي: المصدر نفسه، ص93.
- \*\*\* البهار: نبت طيب الريح (...) وهو نبت جعد له فقاحة صفراء ينبت أيام الربيع، يقال له العرارة.
- ابن منظور: المصدر نفسه، ج1، ص262. (مادة بَهَر).
- \*\*\*\* الشَّحَر: الشَّحِير، ضرب من الشجر. ابن منظور: المصدر نفسه، ج2، ص403. (مادة شَحَر).
- \*\*\*\*\* الهندي: أي الشجر ذو الرائحة الزكية. ابن شهيد الأندلسي: المصدر السابق، ص93.
- \*\*\*\*\* المعينة: الظاهرة الماء الجارية (...) وقيل: الجارية على وجه الأرض. ابن منظور: المصدر نفسه، ج6، ص75. (مادة مَعَن).
- \*\*\*\*\* نورد: فارسي الأصل، يراد به ميدان أو ملعب للخيل والبهلولان، ربما أطلق على ضرب من المحاربة
- على الخيول وقهر الخصم. ابن شهيد الأندلسي: المصدر نفسه، ص102.
- \*\*\*\*\* القرارة: المطمئن من الأرض، وما يستقر فيه ماء المطر. ابن منظور: المصدر نفسه، ج5، ص229. (مادة قرر). غَنَاء: أي خضراء كثيرة الورق ملتفة الأغصان ناعمة. المصدر نفسه، ج5، ص80.
- 18- عبد العزيز شبيل: "البنية القصصية في رسالة التّوابع والتّوابع لابن شهيد الأندلسي"، حوليات الجامعة التونسية، سوسة، تونس، 1988م. ع29. ص171، 172.
- 19- إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي "عصر سيادة قرطبة"، دار الشروق، عمان، الأردن، 1997م ، ط1. ص262.
- 20- سليمة عقوبي: رسالة التّوابع والتّوابع لابن شهيد دراسة سيميائية، (مذكرة ماجستير)، قسم الأدب العربي، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر، 2007م/2008م. (مخطوط). ص134.
- 21- ابن شهيد الأندلسي: المصدر السابق، ص104.
- \*\*\*\*\* المرج: الفضاء، وقيل: المرج أرض ذات كلالٍ ترعى فيها الدواب. ابن منظور: المصدر السابق، ج6، ص35. (مادة مرج).
- 22- عبد الجواد خفاجي: "شرط الشاعرية شرط الحدائث: دراسة نقدية في ديوان موسيقا للبراح للشاعر: بهاء الدين رمضان"، شعر، ع يوليو 2004م: <http://www.geocities.com/bahaa22002/alsahar3.htm>.
- 23- المرجع نفسه، الموقع نفسه.
- \*\*\*\*\* جبل: مجل الإنسان على هذا الأمر أي طُبع عليه. وجبلته الشيء: طبيعته وأصله وما بني عليه.
- ابن منظور: المصدر السابق، ج1، ص370. (مادة جبل).
- 24- سليمة عقوبي: المرجع السابق، ص142.

- 25- نوح : 17.
- 26- ص: 71.
- 27- منال الحقييل: "حياة الصعلوك الاجتماعية في العصر الجاهلي"، رؤى، النادي الأدبي، الحائل، المملكة العربية السعودية، 2007م. ع3: <http://www.adabihail.com/inf/articles.php?actions=show&id=70>
- 28- محمد سعيد محمد: المرجع السابق، ص274.
- 29- أحمد النواوي بدري: "خصوصية تشكيل المكان في آثار إبراهيم الكوني الروائية: الرباعية نموذجاً"، فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، 2003م. ع62، ص 287.
- 30- ابن شهيد الأندلسي: المصدر السابق، ص105.
- 31- المصدر نفسه، ص105.
- 32- حسن بحراوي: بنية الشكل الروائي "الفضاء، الزمن، الشخصية"، المركز الثقافي العربي، بيروت: لبنان، الدار البيضاء: المغرب، 1990م ، ط1. ص300.
- 33- نادر حقاني: : "تحليل نص من رسالة التوابع والزوابع إجازة تابع امرئ القيس لابن شهيد"، التراث العربي، إتحاد الكتاب العرب، سوريا، 2003م. ع79: <http://www.awu-dam.org/trath/79/trath007-htm#doaly-footer>.
- 34- أبو القاسم الشابي: الخيال الشعري عند العرب، الدار التونسية للنشر، تونس، 1985م ، ط1. ص57، 58.
- 35- محمد بن لخضر فورار: "من ملامح وصف الطبيعة الأندلسية زمن الدولة العامرية"، المخبر "أبحاث في اللغة والأدب الجزائري"، قسم الأدب العربي، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، 2008م. ع4، ص25 و34.
- 36- أحمد يوسف خليفة: مصادر الأدب الأندلسي، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، مصر ، 2002م ، ط1. ص09.
- 37- عبد العزيز عتيق: الأدب العربي في الأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، [د.ت] ، [د.ط]. ص313.
- 38- الأنبياء: 30.

- 39- ابن شهيد الأندلسي: المصدر السابق، ص 91.
- 40- المصدر نفسه، ص 98.
- 41- الطارق: 05، 06، 07.